حِبر أبيَض
WHITE INK

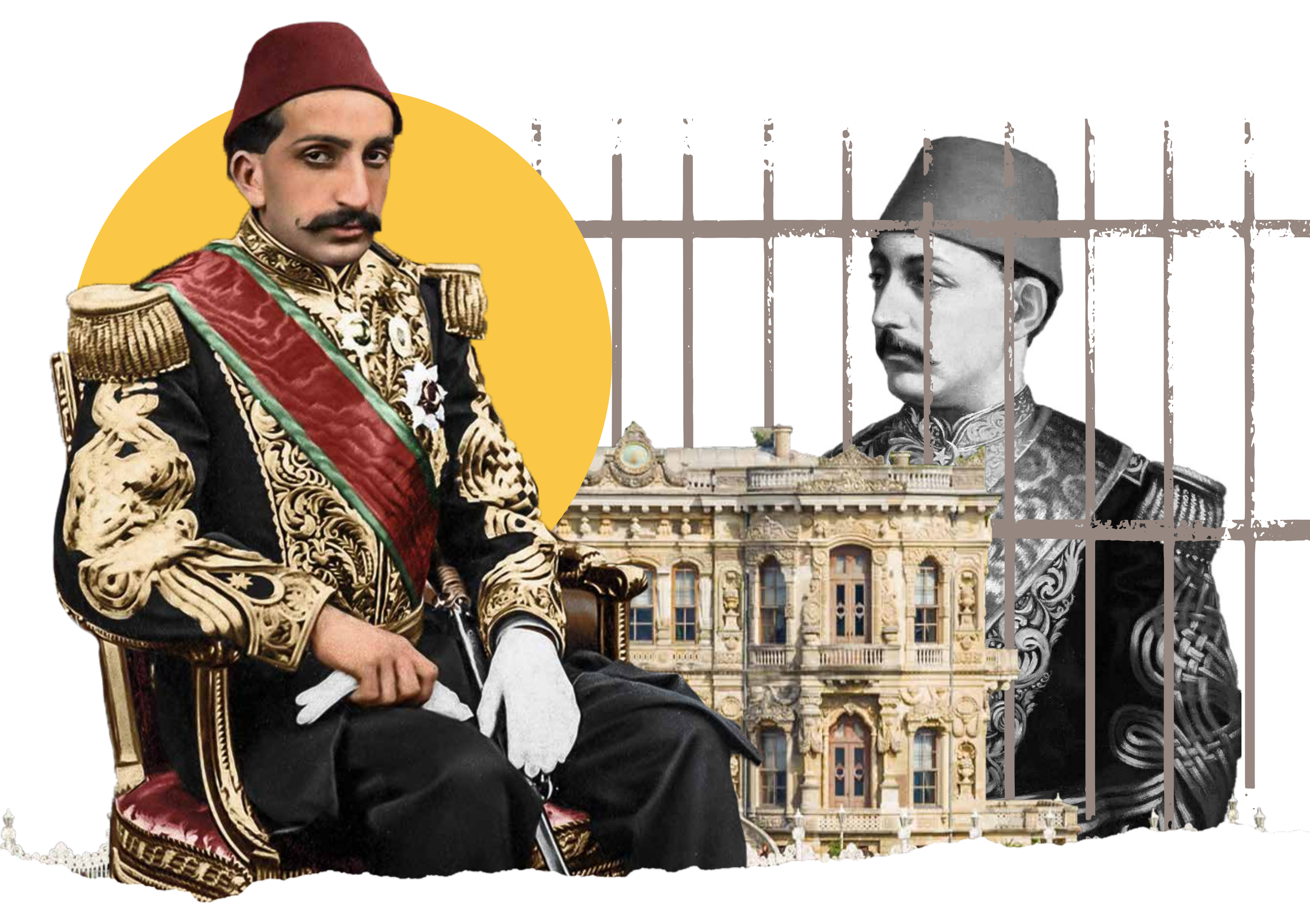

بعد أن شوَّه سمعته وسيرته

عبدالحميد قهر إنسانية أخيه مراد

مُراد الخامس بن عبدالمجيد الأول (1840-1904م)، الذي قُدِّر له أن يُعَاصِر الفترة الفوضويَّة من تاريخ الدولة العثمانية التي تركز فيها الصِراع بين التيارين الإصلاحي والمُحافظ. وشخصية مراد لم تكن بعيدة عن شخصية أخيه عبدالحميد من حيث التأزم النفسي والعُزلة والرهاب، فالظروف التي شكَّلت شخصية مُراد، وأرخت بِظلالها عل انفعالاته وتفاعلاته، تتركز في عدم قدرته على التعاطي مع من حوله أو فهم المجتمع المحيط حوله، خاصةً من رجال الحكومة، وعلى رأسهم المتنفذين.

والاسم الأكثر تداولاً خلال فترة حكم ثلاثة سلاطين: عبدالعزيز، ومراد، وعبدالحميد؛ هو مدحت باشا، وكانت له اليد الطولى في عزل عبدالعزيز ومراد، وتولية عبدالحميد الثاني، وكان يشغل منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ومهندس المطالبة الدستورية. يُضاف إليه وزير الحربية حسين عوني باشا، وهو الذي اقترن اسمه بمدحت في أحداث الفوضى السياسية منذ عزل عبدالعزيز حتى اغتيال عوني في عهد مراد الخامس.

تولى **السلطان عبدالعزيز الحكم سنة** (1861م) بعد أخيه عبدالمجيد، وكعادة العثمانيين فإنهم كانوا يمارسون ما يُسمى بأقفاص الأمراء، لكل من هو مؤهل بأن يتولى السلطنة، بحيث يصبح معزولاً عن المحيط العام حتى لا يؤثر على سير السلطان في حكمه، إما بثورة أو تنظيم قد يقلقه، وقد جاء نظام الأقفاص نتيجةً لتخفيف قانون قتل الإخوة الذي كان معمولاً به فترة طويلة من تاريخ الدولة العثمانية، الذي أحدث أزمة سلالية في الأسرة العثمانية، وبناءً عليه كانت ولاية العهد والسلطنة تؤول إلى من هو أكبر سنًا من بني عثمان المهيَّئين للسلطنة من أبناء السلاطين السابقين.

عصفت بالدولة مجموعة من الأحداث، منها التدخلات الأوروبية من خلال رجال الدولة المؤثرين على رأسهم مدحت وعوني، اللَّذَين كان لهما تأثير واضح على وريثه مراد الخامس، الذي أبدى رغبته في اعتلاء العرش بعد زياراته الأوروبية بمرافقة عمه، التي عُمِّد خلالها في المحافل الماسونية، وأبرز موهبته الموسيقية في تأليف معزوفات أصبحت عالمية بعد ذلك.

> منع عنه الأقلام والصحف والأوراق وأشاع أنه أميٌّ.

غير أن مرادًا لم يكن يجنح إلى العُنف، لذلك كان اتفاقه مع الوزراء أن يتم عزل عمه فقط، في الوقت الذي كان فيه يطمح إلى أن تسير الأمور بسهولة، فوجئ بأن عزل عمه عبدالعزيز جرى بطريقة انقلاب عسكري، انتهى بقتل عبدالعزيز والإشاعة بأنه انتحر، الأمر الذي أثر على مراد وأصبح يعاني من سيطرة الوزراء، لدرجة أنه كان يخافهم ويتوقع بأنهم سيقومون بتكرار الأمر معه وإعدامه.

لذلك لم يكن مراد متوازنًا، وأبدى بعض التصرفات غير العقلانية وغير المنطقية، خاصةً بعدما حدث من حالات اغتيال في مجلس الوزراء، التي راح ضحيتها وزير الحربية حسين عوني أمامه.

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تعيش فترة الفوضى والارتباك بالعزل والقتل واعتلال مراد العقلي؛ كان عبدالحميد يعمل من خلف الكواليس ليُهندس الوضع لصالحه، فباعتباره ولي العهد الثاني في عهد عمه عبدالعزيز والأول بعد مراد؛ كان باستطاعته أن يتدخل بعمل توازن لموقفه الذي بدأ يتدهور ويتسارع بأحداثه، غير أن عبدالحميد كان يسعى لفرض نفسه، في الوقت الذي كانت فيه الظروف تجعله خيارًا حتميًّا لجميع الأطراف لإنقاذ الموقف.

راقب عبدالحميد الأحداث من بعيد، لكنه كان حاضرًا في المشهد مع أصحاب القرار، ولم يُبيِّن أيَّ ردة فعل تجعل المحيطين به يتَوَجَّسون من موقفه. لذا عُرف عنه أنه دائمًا ما يجتمع مع مدحت باشا، وفي اجتماعاتهم التي كانت تُعقد؛ كان مدحت يعي أن عبدالحميد هو الخيار الماثل أمامهم في الوقت الذي كان فيه مراد يخفت نجمه سريعًا، بينما كان عبدالحميد أيضًا يعي جيدًا أنهم مهما استبدوا وصاغوا الموقف السياسي، سيضطرون إليه في النهاية ليعتلي عرش السلطنة العثمانية. لذلك حرص أن يكون على اتفاق واتساق مع كل من كانت بيده السلطة، فاتصل بأكبر عدد ممكن من المسؤولين، وحرص على معرفة كل ما كان مثار نقاش على الساحة كي يبقى حاضرًا مستوعبًا للحدث، وهذا ما جعله يستفيد من ذلك في صياغة الموقف بعد أن تولى السلطنة، بحكم معرفته بنقاط الضعف لجميع من كانوا حوله.

كان عبدالحميد شديد الشَّك والتَّوهُم الذي يُعدّ فوق العادة، وقد اشتُهر بذلك منذ فترةٍ مبكرة من عمره، فقد كان أخوه مراد يتندَّر بشكِّ عبدالحميد، ويمازحه بإيهامه بشكوك غير حقيقية، كان عبدالحميد يتعامل معها بكل جديَّة.

وخلال فترة ارتباك وزراء مراد الخامس؛ كان عبدالحميد يتعامل معهم بحذر ويدقق في نقاط ضعفهم جيدًا، لذلك لم يكن يستجب لضغوطهم عليه بسهولة، ولم يُبدِ لهم حرصه على عزل أخيه مراد وتوليه العرش بدلاً عنه، حيث جعلهم من يحاولون إقناعه بما كان هو يتأمله بشكلٍ غير مباشر.

تردَّد مدحت وأصدقاؤه على عبدالحميد قبل عزل مراد، وعرض عليه فكرة تنصيبه سلطانًا، غير أن عبدالحميد طلب التريث في ذلك، وحاول أن يضغط هو بدوره على مدحت بفكرة أنه ربما يتعافى مراد مما ألمَّ به، لذلك اضطر مدحت إلى عرض مراد على طبيب نمساوي وقيل إنجليزي اسمه ليدرز دورف، متخصص بالأمراض العقلية والعصبية، وقدَّم تقريرًا بأن حالة مراد العقلية قد تتحسن، ولكنه قد يحتاج إلى وقت كي يعود إلى طبيعته، لكن مدحت أعلن الخبر في الصحف بأن السلطان مصاب بمرض عقلي من دون أن يشير إلى قول الطبيب بأنه قد يتشافى خلال أسابيع، ومن ثم ألحَّ على عبدالحميد لمعرفة رأيه في الدستور، ومدى حماسته لإعلانه فيما لو أصبح سلطانًا، واستجاب عبدالحميد وأبدى قناعته بالدستور مبدئيًّا بفتور غير متحمس.

ومع الوقت وازدياد تدهور الوضع؛ بدأ عبدالحميد يؤكد بأنه لو أصبح سلطانًا سيُعلن الدستور ويُصادق عليه، ثم انتقل من مرحلة الظِّل إلى الميدان السياسي، حيث أصبح موجهًا لمدحت بأن يطلب مصادقة العلماء على عزل مراد، وأن يُقدِّم له دراسة عن مشروعه الإصلاحي والدستور، وبالفعل قام مدحت بجمع رجالات الدولة في منزل شيخ الإسلام، وبعد التداول؛ ارتأى الجميع مناسبة المشروع وضرورة إعلانه، وبقي قليل منهم متحفظًا، غير أنهم في النهاية وافقوا رأي الأغلبية.

بعد ذلك فوَّض عبدالحميد الوزراء بمهمة خلع مراد، وإصدار فتوى شيخ الإسلام بخلعه ومبايعة عبدالحميد، بعد أن حكم مراد 93 يومًا فقط، وذلك بعد أن انتزع مدحت وعدًا من عبدالحميد بإعلان الدستور، وهو الدستور الذي صاغه عبدالحميد ليكون تحت سلطته المباشرة، مستغلاً اضطرار مدحت إليه.

حينما أُعلن عن عزل مراد، كان عبدالحميد يعلم بتقرير الطبيب، الذي قال بأنه يحتاج إلى أسابيع كي يتعافى من مرضه العقلي. لذلك سارع بأن بإسكانه في قصر جيرغان، وهيأ له ترفيهًا محدودًا، بعد أن أنقص عدد أفراد حاشيته، ووفر له كل متطلباته كي ينشغل بها عن التفكير في السلطنة، ويستمر في حياة الفوضى والارتباط العقلي الذي كان يعانيه.

ومن جهة أخرى، تفرَّغ عبدالحميد لمدحت ورجال الدستور، وحوَّله إلى وثيقة استبداديَّة، فعلى الرغم من أن مدحت استفاد من الدستور البلجيكي والروسي في صياغة دستوره، إلا أن عبدالحميد أصرَّ على حقه كسلطان بتعيين أعضاء الحكومة بشكلٍ مباشر، لذا كانت الحكومة مسؤولة أمام السلطان وليس أمام البرلمان، الذي لم يكن بمقدوره سنَّ القوانين، ولم يكن متاحًا له سوى مناقشتها قبل صدورها، واحتفظ السلطان بحقِّه المُطلق في عقد أو حلّ البرلمان، لذلك ما أن هُزم أمام روسيا بعد سنتين من حكمه حتى عطَّل الدستور، الذي بقي معطلاً فعليًّا، وساريًا بشكلٍ فني.

مدحت باشا

أحمد شفيق مدحت باشا، واشتُهر بمدحت باشا، ولد في إسطنبول سنة (1823م)، وعاش في كنفِ أُسرةٍ متوسطة، وترقى في العمل الإداري والمناصب الحكومية، ويُعدُّ أحد أشهر السياسيين العثمانيين، ويطلق عليه أبو الأحرار، تولى منصب الصدر الأعظم ووزير العدل، وكان واليًا على كلٍّ من: سوريا، العراق، سالونيك، توفي في الطائف مقتولاً سنة (1884م).

المراجع:

1) قدري قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، ط2 (بيروت: دار العلم للملايين، 1951م).

2) مذكرات مدحت باشا، ترجمة: يوسف كمال بك حتاته (القاهرة: مطبعة هندية، 1913م).

حسين عوني باشا

ولد سنة (1820م) في قونية، أكمل تعليمه والتحق بالعسكرية وتخرَّج منها برتبة ملازم، وترقى في رتبه العسكرية حتى وصل إلى رتبة فريق، وعُيِّن في منصب الصدر الأعظم ووزير الحربية أكثر من مرة في عهد السلطان عبدالعزيز.

المراجع:

1) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود (إسطنبول: مؤسسة فيصل، 1988م).

عبدالحميد يظلم أخاه مراد الخامس:

حين نُقل مراد إلى قصر جيرغان مُنع من الاختلاط بالناس، وحُرِّم عليه الخروج من قصره بأمرِ أخيه عبدالحميد، كما مُنعت عنه الصحُف والكُتُب، ووصل الأمر أن مُنع حُرَّاسه من إدخال أدوات الكتابة إليه في قصره، لذا يُقال بأنه استخدم الفحم لتعليم أولاده وأحفاده، بعد أن استعاد قواه العقلية بعد مدة بسيطة من عزله، وطوال فترة بقاء مراد في قصره لم تطأ قدمه خارج قصره حتى توفي سنة (1904م)، ووصل به الحال أنه كان يعاني هو وأسرته قلة الطعام، ولم يكن لديه مالاً يكفيه الطعام، بل وصل الأمر أن أصبح هو وعائلته في حالٍ يُرثى لها، إذ كان قصره من القصور التي يزورها الأجانب بقصد السياحة، ففي الوقت الذي يأتي فيه وفدٌ سياحيٌ لقصره؛ كان يُحظر عليه وأسرته من الخروج من غرفهم، حتى لا يراهم أحد.

وكانت لدى عبدالحميد أزمة تجاه مراد، فقد صوَّره في مذكراته بأنه غير واعٍ وغير مثقف أو مُتعلِّم، وهذا بخلاف الواقع الذي يطلع عليه كل قارئ لسيرة مراد الخامس، وكانت له آراء متناقضة تجاه مراد، ففي الوقت الذي كان يصفه فيه بالإسراف، يقول بأنه عُرف عنه الطمع الشَّديد، وهذا بحسب ما ذكره تحسين بك المقرَّب من عبدالحميد، إذ ذكر أن مرادًا كان أكثر إخوة عبدالحميد قربًا وحبًا، بسبب أن عبدالحميد كان معجبًا برأي مراد وذهنه المتفتح. وهذا أيضًا تناقض آخر من عبدالحميد تجاه مراد، إذ وصف عبدالحميد في مذكراته شفقته على أسلوب أخيه مراد الركيك في كتابة الرسائل، وأخطائه الإملائية التي لا تُغتفر.

ومما يُعطي دلالةً على ثقافة مراد الخامس؛ أنه كان على اتصال واسع بأهل الفكر والأدب، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلا بكونه محبًّا للأدب والثقافة والعلم، ومما يؤكد ذلك علاقته الوطيدة بنامق كمال، التي كانت تُضايق عبدالحميد، حين كان يقول لنامق الذي يعتبره رأس الفساد: "اعلم يا كمال بك أنك ستتسبب في موت أخي معنويًا وعقليًا".

ويتضح من خلال تتبع الأحداث وتدخلات عبدالحميد فيها قبل توليه؛ أنه كان يُهندس لبقاء أخيه مراد على حاله العقلية السيئة، حتى يتمكن من الوصول إلى السلطنة، إذ كان موافقًا ومتناغمًا مع الطَّرح الذي كان يبرزه مدحت باشا للإعلام العثماني، في المبالغة بعرض حالة مراد العقلية المتدهورة، وحياكة الأخبار المغلوطة عنه، وقد ثبت من خلال المصادر بأنها كانت ملفقةً في كثير من تفاصيلها.

ومن الواضح أن تفاصيلَ دراميةً عدَّة كانت تُصاغ عن حالة مراد الخامس قبل توليه السلطنة وبعد عزله، لكنها في الغالب دراما كئيبة جدًّا ومأساويَّة، خاصةً بعد حياة العُزلة التي فرضها عبدالحميد عليه، إذ كان يُعتبر سجينًا لدى أخيه، وبذلك سُحقت إنسانيته بطمع السُّلطة والسلطنة على مدى 19 عامًا قضاها على هذه الحال، التي كان يُمارس فيها حياةً صامتة، بعيدًا عن جميع أصدقائه وأقاربه والناس جميعًا، لذلك كانت تمرّ أيامه حزينة وبائسة، يُعاني فيها من مرض السُّكري.

كما منع عبدالحميد دخول الكتب والصحف لمراد؛ وذلك يعطي مؤشرًا على أنه لم يكن كما وصفه أخوه في مذكراته، بل إنه معروف بأنه يمارس الكتابة ولو مُكِّن له الأمر لأصبح أشهر كُتَّاب الأتراك على الإطلاق، إذ يروى عنه الكثير من الشواهد التي تؤكد ذلك وتشهد بتفكيره الحرّ وحكمته. ثم إن كان يخشى عبدالحميد إدخال الصحف والكتب عليه لسببٍ أو آخر ممكن تحليله؛ لماذا منع عنه جميع أدوات الكتابة من أقلام وأوراق؟.

وإجابة هذا التساؤل تؤكد حالة الرُّعب التي كان يعيشها عبدالحميد من أن يكتب مراد ما في مخزنه الفكري من تحليل وأحداث وتحليلات، حتمًا ستتناقض مع ما كان يحاول أن يصوره عبدالحميد عنه، والأكثر رعبًا أيضًا لو أنَّ مُراد كتب مُذكراته، كما فعل عبدالحميد الأمر نفسه بعد عزله حين مُكِّن له أن يكتب مذكراته، إن صحَّت نسبتها إليه، مع أنه كان يفترض أن يُجازى بجنس ما فعله مع مراد، ولو أن أمرًا كهذا قد لا يكون مرغوبًا لدى المؤرخين والمحللين السياسيين.

يبدو أن الظروف كانت أقوى من مراد الخامس ومن آماله، فالحالة التي صُوِّر بها والحياة التي فُرضت عليه تُخبئ الكثير من الأسرار التي لم يتم الكشف عنها حتى الآن، ولو أن شيئًا تُرك خلف مراد؛ فمن المؤكد أن عبدالحميد أخفاه أو أتلفه؛ لأن مثل هذا الفعل يتواءم كثيرًا مع شخصية عبدالحميد الاستبداديَّة، التي تؤكد معاناته بفوبيا المؤامرة، وإحاطته نفسه بعددٍ كبير من الجواسيس والحرس ورجال الشرطة، بل إن كل من كان في خدمة مراد في منفاه في القصر كانوا من جواسيس عبدالحميد، وعلى اتصال تام به يفيدونه بكل تفاصيل حياة مراد، لذلك كل من كان يعمل في خدمة مراد بعد عزله؛ يُحكم عليه بالعُزلة مثله، ولا يمكن أن يخرج من جيرغان حيًّا. فهذه الهالة والعُزلة جرَّت معها الكثيرين من أسرة مراد ومن كانوا يعملون في خدمته.

وعلى الرغم من بؤس مراد؛ إلا أنه عُرف عنه أيضًا أنه كان موسيقيًّا من طرازٍ فريد، بل إنه كان شغوفًا بالبيانو والعزف على الكمان، فقد قدَّم أكبر عدد من المؤلفات الموسيقية الغربية، يقال: إنها بلغت ما يقارب ثلاث مجلدات، إضافةً إلى حبِّه وتعلقه بالعمارة والفن المعماري والرسم.

ظلَّ مراد ما يقارب 28 عامًا في جيرغان حتى توفي، متأثرًا بالمرض، واستمر وضع عائلته تحت الإقامة الجبرية كما كانوا في حياة مراد، حتى قامت الثورة على عبدالحميد الثاني سنة (1908م) خلال الانقلاب العثماني، عندما خرجوا للشارع أول مرة بحالة من الابتهاج والفرح الهستيري بخلاصهم من سجن السلطان العم، وهذا أيضًا يؤكد أن عبدالحميد لم يكن يريد لمراد ولا أسرته أن يخرجوا من عزلتهم، ولا أن يدلوا بأي شيء عما يختزلوه في ذاكرتهم من أحداث أو تفاصيل.

> حبسه في قصره وعزله عن العالم الخارجي وادعى تأسيه عليه وحبه له.

وكان عبدالحميد يتظاهر بحُبِّ مراد، ويحاول أن يُشيع ذلك، سواءً في مُذكراته المزعومة، أو ما كانت ابنته تحاول إشاعته عنه بأنه تأثر كثيرًا عندما علم بوفاة مراد، وبكى بكاءً غزيرًا، بينما يدين الواقع والأحداث والشواهد عبدالحميد فيما قام به من قهرٍ لإنسانية مراد وعائلته ما يربو على ربع قرنٍ من الزمان، كما أنه لم يشعُر بالندم، ولم يتخذ إجراءً يُكفِّر فيه عن جريمته الإنسانية بفكِّ أسرِ أُسرة أخيه، بل استمرَّ في حبسهم ونفيهم في قصر أبيهم إلى أن كان الثُّوار خلال الانقلاب العثماني أرحم منه بكثير في حالهم، حين فكوا قيود الجبروت التي فرضها عبدالحميد باستبداده وسلطويته، التي كانت أبعد ما يكون عن المعاني الإنسانية، مهما ادعى هو أو ابنته أو من يبررون له فعلته، فإن كان يرى بأن مرادًا كان مُجرمًا في انتمائه للماسونية؛ فإن عبدالحميد نفسه كان يعرف كثيرًا من أعضاء المحافل وعلى اتصال بهم، وقد مكنهم من السلطة في عهده، وسمح لهم بممارسة نشاطهم تحت سيطرته التي كان يتوهمها، ولا أدلّ على ذلك من عفوه عن علي سعاوي الذي انقلب عليه، وهو يعي تمامًا ماسونيته وارتباطاته بالمحافل، بل إنه مكَّنه من السلطة والسطوة حتى خرج عن مساره.

لذلك فإن الجريمة الحقيقية التي دعت عبدالحميد لحبس مراد وإغراقه بالانعزال، وقهر إنسانيته وسحق بشريته مع عائلته؛ كانت تنصب على أنه كان مهددًا لبقائه على عرشه، وهذا ديدن عبدالحميد فيمن يشك في تهديدهم لسلطويته.

المراجع:

1) أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط3 (القاهرة: دار الشروق، 2003م).

2) زكريا بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (جدة: عالم المعرفة، 1991م).

3) ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ترجمة: مركز المؤسسة (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011م).

4) تحسين بك، السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: كمال أحمد خوجة (الكويت: ذات السلاسل، 2017م).

5) عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: صالح سعداوي (عمّان: دار البشير، 1991م).

6) عبدالمسيح الأنطاكي، نيل الأماني في الدستور العثماني (القاهرة: مطبعة العرب، 1908م).

7) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تحقيق: إحسان حقي (بيروت: دار النفائس، 1981م).

8) مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة: محمد حرب، ط5 (دمشق: دار القلم، 2012م).

9) مراد دومان، ذكريات السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: أحمد عمر (القاهرة: دار النيل، 2016م).

10) مصطفى أرمغان، التاريخ السِّري للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: مصطفى حمزة (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).